تطريز

أسباب نصر الله

للمؤمنين على أعدائهم

للعلامة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز
(١٣٣٠-١٤٢٠) رحمه الله

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الخزانة العصيمية

تَطْرِيزُ

أَسْبَابِ نَصْرِ اللَّهِ

لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ

محفوظة
كل الحقوق

لا يسمح بطبع التفريغ للأغراض التجارية
أو ترجمته أو اختصاره دون موافقة خطية

الإبرازة الأولى
١٤٤٦

للإعلام بخطأٍ طباعيٍّ أو الاستدراك أو إبداء رأيٍ؛
يُرجى المراسلة على البريد الآتي : Abdellahdj24@gmail.com

سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ ١٨٦

تطريز

أسباب نصر الله

للمؤمنين على أعدائهم

للعلامة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز

(١٣٣٠-١٤٢٠) رحمه الله

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّنا، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

أمَّا بَعْدُ:

فهذا هو (**الدَّرس التَّاسع عشر**) من (**برنامج الدَّرس الواحد الخامس**)، والكتاب المقروء فيه هو «**أسباب نصر الله للمؤمنين على أعدائهم**»، للعلَّامة ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشُّروع في إقرائه لا بدَّ من ذكر مقدِّمتين اثنتين:

المُقَدِّمَةُ الأُولَى: التَّعرِيفُ بالمُصَنِّفِ

وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ:

- **المقصد الأوَّل: جرُّ نسبه:**

هو الشَّـيخ العلَّامة القدوة عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرَّحمن ابن بازٍ، يُكنَى بأبي عبد الله، ويُعرَف بابن بازٍ - نسـبةً إلى جدٍّ له -، ولُقِّب بمفتي البلاد، وشـيخ الإسلام، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الزُّهد في اللَّقب.

- **المقصد الثَّاني: تاريخ مولده:**

وُلِد في الثَّاني عشر من ذي الحجَّة، سنة ثلاثين بعد الثَّلاثمائة والألف (١٣٣٠).

- **المقصد الثَّالث: تاريخ وفاته:**

تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السَّـابع والعشـرين من محرَّم الحرام، سـنة عشـرين بعد الأربعمائة والألف (١٤٢٠)، وله من العمر تسعون سنةً، فرحمه الله رحمةً واسعةً.

المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: التَّعْرِيفُ بالمُصَنَّفِ

وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ أيضًا:

- **المقصد الأوَّل: تحقيق عنوانه:**

اسم هذه الرِّسالة: «أسباب نصر الله للمؤمنين على أعدائهم».

- **المقصد الثَّاني: بيان موضوعه:**

حشد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طَيَّات قوله جملةً من الأسباب الشَّرعيَّة الَّتي تُوجِب نصر الله ومعونتَه لعباده المؤمنين.

- **المقصد الثَّالث: توضيح منهجه:**

أصل هذه الرِّسالة محاضرةٌ ألقاها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثمَّ فُرِّغت من الشَّريط الصَّوتيِّ، وطُبِعت في حياته، فجاء نسقها متلاحقًا متتابعًا موافقًا لِما عليه الأمر في الإلقاء البيانيِّ، فلم تشتمل على فصولٍ ولا أبوابٍ، لكنَّها تميَّزت بجملةٍ كثيرةٍ من الآيات القرآنيَّة، كما كان دأبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وعظه وإرشاده.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، نبيِّنا وإمامنا وسيِّدنا محمَّد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدِّين.

أمَّا بَعْدُ:

فإنِّي أشكر الله عَزَّوَجَلَّ على ما منَّ به من هذا اللِّقاء بإخوةٍ في الله، في أشرف بقعةٍ من بقاع الدُّنيا وهي مكَّةَ المكرَّمة؛ للتَّواصي بالحقِّ، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، وبيان أسباب انتصار المسلمين على أعدائهم، وبيان ضدِّ ذلك.

وأسأل اللهَ جَلَّوَعَلَا أن يجعله لقاءً مباركًا، وأن يُصلِح قلوبنا وأعمالنا جميعًا، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته، وأن يُصلِح ولاة أمر المسلمين جميعًا، ويمنحهم الفقه في الدِّين، وأن يوفِّقهم لتحكيم شريعته بين عباده، كما أسأله سُبْحَانَهُ أن يوفِّق ولاة أمرنا في هذه البلاد لكلِّ خيرٍ، وأن يعينهم على كلِّ ما فيه صلاح العباد والبلاد، وأن يصلح لهم البطانة، وأن ينصر بهم الحقَّ ويخذل بهم الباطل، ويجعلهم من الهداة المهتدين، إنَّه خير مسؤولٍ.

ثمَّ إنِّي أشكر إخواني القائمين على هذا النَّادي، وعلى رأسهم معالي الأخ الدُّكتور راشد بن راجحٍ - مدير جامعة أمِّ القرى -، ورئيس النَّادي على دعوتهم لي لهذا اللِّقاء.

وأســأل الله أن يبارك في الجميع، وأن يصــلح أحوالنا جميعًا، ويجعلنا من دعاة الهدى وأنصار الحقِّ، إنَّه سميعٌ قريبٌ.

أيُّها الإخوة في الله: ذكر معالي الدُّكتور راشــدٍ حَفِظَهُ ٱللَّهُ في المقدِّمة أنَّني رئيس هيئة كبار العلماء، وأحبُّ التَّصحيح، فإنَّ الرِّئاسة للهيئة محصورةٌ في خمسةٍ من كبار السِّـنِّ من الأعضـاء، تدور بينهم الرِّئاسـة، كلُّ واحدٍ في السَّـنة الخامسـة يأتيه الدَّور، وأنا واحدٌ منهم، ولست رئيسًا الهيئة، ولكنِّي واحدٌ من رؤساء الهيئة.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصـنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما سـبق من قوله جملًا ابتدأ بها البيان المقصـود، وهو إبانة أسباب نصر الله للمؤمنين، فقدَّم بين يدي ذلك حمدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والصَّلاةَ على نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ شكرَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ أن يسَّر هذا الاجتماع.

وقد ظهرت في هذه المقدِّمة خَصِـيصـتان من خصـائص الشَّـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لا تختصَّـان به دون غيره من أئمَّة الدَّعوة النَّجديَّة؛ بل كان هذا ديدانهم وعادتهم؛ اتِّباعًا للشَّرع الحكيم:

* **أولاهما**: دعاؤه لولاة أمر المسـلمين جميعًا أن يصـلحهم الله، وأن يمنحهم الفقه في الدِّين، وأن يوفِّقهم لتحكيم الشَّـرع، ثمَّ تخصـيص ولاة أمر هذه البلاد أن يوفِّقهم الله لكلِّ خيرٍ.

ومن شـعار أهل السُّـنَّة عند ظهور الوقيعة في الولاة: إظهار الدُّعاء لهم، وكانت

تلك السَّنوات الَّتي ألقى فيها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المحاضرة من السَّنوات الَّتي راج فيها الطَّعن في ولاة أمور المسلمين.

والَّذي ينبغي على العبد هو سلوك هذه الجادَّة، فيسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح ولاة أمور المسلمين جميعًا، وأن يوفِّقهم لتحكيم الشَّريعة؛ لأنَّ صلاح الولاة صلاحٌ للمسلمين، وهذا هو دأب السَّلف، كما جاء هذا عن الفضيل بن عياضٍ [١]، وأحمد ابن حنبلٍ [٢]، في آخرين.

ولم تكن طريقة أئمَّة الدَّعوة ما انتحله بعضهم - زاعمين أنَّه طريقة السَّلف - من الزِّيادة على هذا بالمبالغة في المدح، فكما أنَّهم يباعدون طريق القالين الشَّانئين للولاة، فهم يباعدون طريق الغالين المبالغين في مدح الولاة، فلم يكن من طريقتهم مدح الولاة إلَّا عند الحاجة إلى حثِّهم على خيرٍ، فيمدحونهم بما هو فيهم.

والواجب على الإنسان إذا سلك هذه الطَّريق أن يفعل ذلك تقرُّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وابتغاء رضائه.

* **وأمَّا الخصيصة الثَّانية**: فهي مقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإنزاله غير منزله، وعدم مبالاته بالمناصب والرِّئاسات، فإنَّه لمَّا قدَّم له المتكلِّم بأنَّه رئيس هيئة كبار العلماء، وكان

---

(١) أخرج الأصبهانيُّ في «الحلية» ٨/ ٩١ عن الفضيل قال: «لو أنَّ لي دعوةً مستجابةً ما صيَّرتُها إلَّا في الإمام»، قيل له: وكيف ذلك يا أبا عليٍّ؟ قال: «متى ما صيَّرتُها في نفسي لم تَجُزني، ومتى صيَّرتُها في الإمام فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد».

(٢) أخرج الخلَّال في «السُّنَّة» ١/ ٨٣ عن الإمام أحمدَ قال: «إنِّي لأدعو له - يعني السُّلطان - بالتَّسديد والتَّوفيق في اللَّيل والنَّهار والتَّأييد، وأرى ذلك واجبًا عليَّ».

حينئذٍ لم يتبوَّأ هذه الرِّئاسة - فلم يكن قد صدر أنذاك النِّظام الأخير الَّذي نظَّم دوائر الدَّولة، ومن جملتها هيئة كبار العلماء، وعُيِّن الشَّيخ رئيسًا لها ومفتيًا عامًّا للبلاد -؛ أحبَّ أن ينبِّه إلى إنَّه ليس رئيسًا دائمًا لهذه الهيئة؛ بل الرِّئاسة فيها تدور بين خمسةٍ من كبار السِّنِّ من الأعضاء، كلُّ واحدٍ في السَّنة الخامسة يأتيه الدَّور.

وفي هذا أبلغ دليلٍ على زهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعدم اغتراره بالمناصب والرِّئاسات.

وكان هذا دأب النَّاس في هذه البلاد، فلم تكن تروج عندهم هذه الألقاب الَّتي ملأت السَّاحة اليوم: (العلَّامة، والمحدِّث، والعالم الرَّبَّانيُّ)، وأشباهها.

ولا نذكر أبدًا محاضرةً ولا درسًا ولا كتابًا كُتِب فيه عن الشَّيخ عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حياته: (العلَّامة، أو الإمام، أو العالم الرَّبَّانيُّ)، ولا عن الشَّيخ ابن عثيمين، ولا من تقدَّمهما؛ بل كان إذا قيل عند أحدٍ منهم: (العلَّامة، أو الإمام، أو شيخ الإسلام) غضب لذلك غضبًا شديدًا وقطع كلام المتكلِّم، ووقع هذا مرارًا منهم فيما رأينا وسمعنا.

ولم تكن هذه طريقتهم لأنَّ طلب الألقاب ليس من طريقة عباد الله المخلِصين المخلَصين، وإنَّما هذا شيءٌ سرى إلى القلوب بسبب ضعف الإيمان، ووهن الشَّريعة، وطلب النَّاس الرِّفعةَ بعضهم عند بعضٍ بالتَّزيِّي بالألقاب والرِّئاسات والمناصب، حتَّى راج هذا الأمر على كثيرٍ من المنتسبين إلى العلم!

فينبغي أن يكون سلوك هذه الطَّريقة من دأب المخلص، ولا يروج عليه ما راج على النَّاس اليوم.

وإنَّما نبَّهت إلى هذا استفادةً من طريقة الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتحريضًا على سلوك الجادَّة الَّتي مضى عليها أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

أمَّا ما يتعلَّق بموضوع المحاضرة - وهي أسباب نصر الله للمؤمنين -، فالله جَلَّوَعَلَا جعل للنَّصر أسبابًا، وجعل للخذلان أسبابًا.

فالواجب على أهل الإيمان في جهادهم - وفي سائر شؤونهم - أن يأخذوا بأسباب النَّصر، ويستمسكوا بها في كلِّ مكانٍ، في المسجد، وفي البيت، وفي الطَّريق، وفي لقاء الأعداء، وفي جميع الأحوال.

فعلى المؤمنين أن يلتزموا بأمر الله، وأن ينصحوا لله ولعباده، وأن يحذروا المعاصي الَّتي هي من أسباب الخذلان.

ومن المعاصي: التَّفريط في أسباب النَّصر، الأسباب الحسِّيَّة الَّتي جعلها الله أسبابًا لا بدَّ منها، كما إنَّه لا بد من الأسباب الدِّينيَّة، فالتَّفريط في هذا أو هذا سبب الخذلان.

والله جَلَّوَعَلَا يقول في كتابه العظيم - وهو أصدق القائلين -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۞﴾[محمَّد:٧].

هذه الآية العظيمة خطابٌ لجميع المؤمنين، أوضح فيها سُبْحَانَهُ أنَّهم إذا نصروا اللهَ نصرهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونصرُ الله من المؤمنين هو اتِّباع شريعته، ونصر دينه، والقيام بحقِّه، وليس هو سُبْحَانَهُ في حاجةٍ إلى عباده؛ بل هم المحتاجون إليه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۞﴾[فاطر:١٥-١٧]، فالنَّاس كلُّهم - جنُّهم

وإنسهم، ملوكهم وعامَّتهم - كلُّهم في حاجةٍ إلى ربِّهم، وكلُّهم فقراءُ إلى الله، والله سُبْحَانَهُ هو الغنيُّ الحميد.

فنصره سُبْحَانَهُ هو نصر شريعته، وهو نصر دينه، هذا هو نصره، نصر ما بَعث به رسولَه وأنزل به كتابَه الكريم.

فإذا قام المسلمون بنصر دينه، والقيام بحقِّه، ونصر أوليائه؛ نصرهم الله على عدوِّهم، ويسَّر أمورهم، وجعل لهم العاقبة الحميدة، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾[هود:٤٩]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝﴾ [آل عمران:١٢٠]، والصَّبر والتَّقوى يكونان بنصر الله، والقيام بدينه سُبْحَانَهُ، والتَّواصي بذلك، في السِّرِّ والجهر، في الشِّدَّة والرَّخاء، في حال الجهاد وما قبله وما بعده، وفي جميع الأحوال.

ولمَّا حذَّر سُبْحَانَهُ من اتِّخاذ البطانة من دون المؤمنين في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [آل عمران:١١٨]، بيَّن سُبْحَانَهُ في آخر الآيات أنَّهم إذا صبروا واتَّقوا لم يضرَّهم أعداؤهم، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝ ﴾[آل عمران:١٢٠]، وفي الآية الأخرى يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ ﴾[آل عمران:١٨٦]، وفي الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾[يوسف:٩٠]، ويقول سُبْحَانَهُ:

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾[الأنفال:٤٦].

فنصرُ الله جَلَّوَعَلَا باتِّباع شريعته، والصَّبر على ذلك، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝﴾[محمَّد:٧].

وهذا مثل قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لابن عبَّاسٍ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، فمَن حفظ الله - بحفظ دينه، والاستقامة عليه، والتَّواصي بحقِّه، والصَّبر عليه - نصره اللهُ، وأيَّده على عدوِّه، وحفظه من مكائده.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝﴾[الرُّوم:٤٧]، والمؤمنون هم الَّذين استقاموا على دين الله، وحافظوا على حقِّه، وابتعدوا عن مناهيه، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝﴾[يونس:٦٢-٦٣].

فالمؤمنون هم المتَّقون، وهم أولياء الله، وهم أنصار دين الله، ينصرهم الله ويحميهم من كيد أعدائهم، ويجعل لهم العاقبة سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ فيما سبق أنَّ للنَّصر أسبابًا، **وهذه الأسباب نوعان اثنان:**

- **أحدهما**: الأسباب الدِّينيَّة المعنويَّة.
- **والآخر**: الأسباب الحسِّيَّة البدنيَّة.

والعبد مأمورٌ بطلبهما جميعًا.

وقد جمعهما وصف المؤمن في الحديث الَّذي أخرجه مسلمٌ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[(١)]، فهذا الحديث يشمل **نوعين من القوَّة**:

- **أحدهما**: القوَّة الإيمانيَّة المعنويَّة.
- **والآخر**: القوَّة الحسِّيَّة البدنيَّة.

ولكلِّ واحدةٍ من هاتين القوَّتين أسبابٌ توصل إليها.

وقد أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالأخذ بهذه الأسباب، فأمرنا بأن نتَّخذ الأسباب الحسِّيَّة، كما قال تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، وأمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن نتَّخذ كذلك الأسباب المعنويَّة الدِّينيَّة، وهي الَّتي اقتصر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ على بيانها فيما يُستقبَل من كلامه.

وقد ذكر أنَّ (من المعاصي): أن يفرِّط العبد في طلب هذه الأسباب؛ لأنَّ تفريطه تضييعٌ لِما أُمِر من طلب أسباب القوَّة المورثة للنَّصر، فإذا فوَّت الإنسان سببًا من أسباب القوَّة فقد فوَّت مأمورًا به.

وقد صدَّر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ القول في هذه الأسباب بذكر الآية الجامعة في نصرة الله عَزَّ وَجَلَّ لأوليائه؛ وهي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: (﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد:٧])، فهذا خبرٌ صادقٌ من الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ من قام في

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٦٦٤).

نصره فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقوم في نصره؛ لأنَّ من أسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: النَّصير.

ووصف الله عَزَّوَجَلَّ باسم (النَّصير) يشمل معنيين اثنين:

✓ **أحدهما**: أنَّه ينصر أولياءه، فهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ؛ أي نصيرٌ بمعنى ناصرٍ.

✓ **والثَّاني**: أنَّه ينصره أولياؤه، فهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي نصيرٌ بمعنى منصورٍ.

ونصرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الَّتي أمرنا بها وعلَّق نصره لنا عليها هي بـ (اتِّباع شريعته، ونصر دينه، والقيام بحقِّه).

وليس المقصود بنصرة الله عَزَّوَجَلَّ: طلب استعزاز الله عَزَّوَجَلَّ بنا من ذلَّةٍ، ولا الاستكثار بنا من قلَّةٍ، **وإنَّما المقصود** بنصرة الله عَزَّوَجَلَّ: نصرة شريعته؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غير محتاجٍ إلينا؛ بل هو الغنيُّ، ونحن الفقراء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞﴾[فاطر:١٥].

فالخلق مفطورون على الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل لا غنًى لهم إلَّا بهذا الفقر، وإذا استغنوا عن فقرهم إلى ربِّهم أصابهم الفقر على الحقيقة، وقد كان من دعاء بعضهم: «اللَّهمَّ أغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك»[(١)]، فإذا افتقر العبد إلى ربِّه أغناه الله، وإذا استغنى العبد عن ربِّه خُذِل فلحقه الفقر على الحقيقة.

ثمَّ بيَّن المصنِّف **قطبين عظيمين يقوم عليهما أمر نصرة دين الله** عَزَّوَجَلَّ، **وهما:**

- التَّقوى.
- والصَّبر.

---

(١) هو من دعاء عمرو بن عبيدٍ. انظر: «البيان والتَّبيين» ٣/ ١٨٠، و«عيون الأخبار» ٢/ ٣١٤.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لعبده: (﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾[هود:٤٩]):

○ فأمره بالصَّبر في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ﴾.

○ وأمره بالتَّقوى في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وجاء الخبر الآخر منه عَزَّوَجَلَّ بأنَّ من صبر واتَّقى لم يضرَّه كيد الكائدين من الكفَّار وغيرهم، قال تَعَالَىٰ: (﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠])، وعلَّق الفلاح على اجتماع الصَّبر والتَّقوى، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾[آل عمران:٢٠٠]، وقال تَعَالَىٰ: (﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝﴾[آل عمران:١٨٦])، وقال تَعَالَىٰ: (﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾[يوسف:٩٠])، في آيٍ أخر تدلُّ على اقتران هذين الأمرين العظيمين أحدهما بالآخر، وأنَّ من اجتمع فيه هذان القطبان - فنصر شريعة الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّقوى، وصبر على ذلك - فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينصره؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: (﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[محمَّد:٧])، وقال تَعَالَىٰ: (﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[الرُّوم:٤٧])، في آيٍ أخر.

ومعنى هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾[محمَّد:٧] يطابق من السُّنَّة ما جاء في حديث ابن عبَّاسٍ عند التِّرمذيِّ وغيره، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: («احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ»)[1]، وهذا حديثٌ عظيمٌ، وسنقرأ غدًا

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ بعد صــلاة الفجر كتاب أبي الفرج ابن رجبٍ «نور الاقتباس» في بيانه [١]، ونقف على نحوٍ من هذا المعنى الَّذي ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) وهو الدَّرس الحادي والعشرون من دروس (برنامج الدَّرس الواحد الخامس).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويقول سُبْحَانَهُ في كتابه الكريم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ *﴾[الحجّ: ٤٠-٤١]، هؤلاء هم المنصورون، وهم الموعودون بالعاقبة الحميدة.

ثمَّ أوضح سُبْحَانَهُ صفات النَّاصرين له، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقدَرناهم ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني حافظوا على هذه وهذه كما أمر الله، فأقاموا الصَّلاة كما أمر الله بأركانها وواجباتها وغير ذلك من شؤونها، وأدَّوا الزَّكاة طيِّبةً بها نفوسُهم كما شرع الله، ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [الحجّ:٤١]، وهذا يعمُّ جميع الأوامر والنَّواهي، فيدخل في المعروف: الصِّيام، والحجُّ، والجهاد، وبرُّ الوالدين، وغير ذلك ممَّا أمر الله به ورسوله، ويدخل في المنكر: كلُّ ما نهى الله عنه من أنواع الشِّرك، وسائر المعاصي.

فالمؤمنون يوحِّدون الله ويؤمنون به إيمانًا صادقًا، ويلتزمون بتوحيده، والإخلاص له، وتصديق أخباره وأخبار رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبالقيام بحقِّه كما أمر، ومع ذلك يحذرون ما نهى عنه، ويبتعدون عمَّا حرَّم عليهم؛ رغبةً فيما عنده، وطلبًا لمرضاته جَلَّ وَعَلَا، وحذرًا من عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، وهم المتَّقون المذكورون في قوله تَعَالَىٰ في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال:٣٤].

فربُّنا ينوِّع العبارات في صفات المؤمنين، وترجع إلى شيءٍ واحدٍ، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾[آل عمران:١٢٠]، فيدخل في هذا: الصَّلاة، والزَّكاة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وسائر ما أمر الله به ورسوله، كما يدخل في ذلك - من باب أولى -: توحيد الله، والإيمان به، والإيمان برسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتصديق أخبار الله ورسوله، كلُّها داخلةٌ في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾.

كما أنَّها داخلةٌ في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الحج:٤١]، فالصَّبر والتَّقوى يشتملان على فعل جميع الأوامر، وترك النَّواهي.

وهكذا قوله سُبْحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمَّد:٧]، يشمل فعل الأوامر، وترك النَّواهي.

فإنَّ هذا هو النَّصر لله: بفعل أوامره، وترك نواهيه، عن إيمانٍ، وعن إخلاصٍ لله، وتوحيدٍ له سُبْحَانَهُ، وإيمانٍ برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا عن مجرَّد شجاعةٍ وحميَّةٍ، ولا ليُقال: إنَّه كذا وكذا، ولا لمقصدٍ آخر غير اتِّباع الشَّرع.

فالنَّصر لدين الله يكون بطاعة الله، وتعظيمه، والإخلاص له، والرَّغبة فيما عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعمل بشريعته؛ يريد ثوابه وإقامةَ دينه.

فمن كان بهذه الصِّفة فهو من المؤمنين الَّذين قال الله فيهم: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمَّد:٧]، ويقول فيهم جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝﴾[غافر:٥١-٥٢] يعني بذلك العاقبة الوخيمة، وهي اللَّعنة وسوء الدَّار، فالعاقبة الوخيمة هي النَّار، والطَّرد من رحمة الله؛ لأنَّهم لم ينصروا الله ولم ينصروا دينه. فالظَّالمون لا تنفعهم المعاذير، ولهم اللَّعنة، ولهم سوء الدَّار يوم القيامة.

بخلاف من نصر دين الله واستقام عليه، فلهم الرِّضا، والكرامة، والعاقبة الحميدة، وذلك بالنَّصر في الدُّنيا، والفوزِ في الآخرة بدخول الجنَّة والنَّجاةِ من النَّار - نسأل اللهَ أن يجعلنا وإيَّاكم منهم.

فالرُّسل وأتباعهم - وهم المؤمنون - لهم النَّصر في الدُّنيا بإظهارهم على عدوِّهم، وتمكينهم من عدوِّهم، وجعلِ العاقبة الحميدة لهم ضدَّ عدوِّهم، وفي الآخرة لهم النَّصر بدخول الجنَّة، والنَّجاة من النَّار، والسَّلامة من هول اليوم العظيم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ حقيقة النَّصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي إقامة شريعته، واتِّباع أمره، ومجانبة نهيه؛ أورد من القرآن ما يصدِّق قول ذلك.

فأورد قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحجّ: ٤٠])، فإنَّ الاسم الموصول فيها ﴿مَن﴾ فُسِّر في الآية الَّتي تليها: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾[الحجّ: ٤١]، فكأنَّ معنى الآية: (ولينصرنَّ اللهُ الَّذين ينصرونه)، ثمَّ بيَّن

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفات الَّذين ينصرونه، فذكر من صفاتهم صفاتٍ أربعةً عظيمةً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[الحجّ: ٤١])، وهؤلاء الأربع من جملة ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به من إقامة شريعته، وإنَّما خُصِّت بالذِّكر؛ تنبيهًا إلى أهمِّيَّتها وعلوِّ مقامها:

- فالصَّلاة والزَّكاة أعظم الأعمال في أركان الإسلام بعد الشَّهادتين.
- والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هما السَّبيل إلى دوام إقامة الدِّين، وذلك بالتَّواصي بالحقِّ، والنَّهي عن الشُّرور والمعاصي.

فمن قام بهذه الصِّفات الأربع كان قائمًا في نصر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بدَّ أن ينصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك هذا البيان المفسَّر في هذه الآية من سورة الحجِّ هو مفسِّرٌ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾[آل عمران:١٨٦]؛ لأنَّ أصل الصَّبر والتَّقوى يرجع إلى لزوم الشَّريعة؛ فإنَّ **الصَّبر شرعًا** هو حبس النَّفس على حكم الله. ومن جملة حبس النَّفس على حكم الله: حبسها على الأمر أن تفعله، وعلى النَّهي أن تتركه. كما أنَّ **حقيقة التَّقوى** هي اتِّخاذ العبد وقايةً بينه وبين ما يخشاه باتِّباع خطاب الشَّرع. وقد تقدَّم بيان هذين المعنيين غير مرَّةٍ، ويأتي إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ في درس «نور الاقتباس» للحافظ ابن رجبٍ.

فصار الصَّبر والتَّقوى جامعين لمعنى إقامة الدِّين، ولذلك جاء ذكرهما كثيرًا في القرآن الكريم؛ للتَّنبيه على أنَّهما سببان عظيمان من أسباب النَّصر، وهما شاملان

- كما سبق -: تصديقَ الأخبار، وفعل الأوامر، واجتناب النَّواهي، والرِّضا والصَّبر على أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن كان بهذه الحلية فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ينصره، كما قال تَعَالَىٰ في الآية الثَّالثة: (﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾[محمَّد: ٧])، وقال: (﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحجّ: ٤٠]).

ومن كان على خلاف هذا فعليه لعنة الله في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد، وله الخسار والتَّبار في الدُّنيا والآخرة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞﴾[النُّور:٥٥].

هؤلاء هم أنصار الله، الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، وهم الَّذين أقاموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وهم الَّذين نصروا دين الله واستقاموا عليه.

فالآيات والأحاديث يفسِّر بعضها بعضًا، ويدلُّ بعضها على معنى بعضٍ.

فأنصار الله هم المؤمنون، وهم المتَّقون، وهم الصَّابرون الصَّادقون، وهم الأبرار، وهم الَّذين إذا مُكِّنوا في الأرض أقاموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وهم الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات المذكورون في هذه الآية من سورة النُّور، وهم الَّذين قاموا بهذين الأمرين.

آمنوا بالله ورسوله، آمنوا بالله ربِّهم وهو معبودهم الحقُّ خصُّوه بالعبادة، وآمنوا بأسمائه وصفاته، واستقاموا على دينه قولًا وعملًا وعقيدةً.

هؤلاء هم المؤمنون، هم أنصار الله، هم أنصار دينه، وهم المتَّقون، وهم الَّذين قال فيهم: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠].

وهم المؤمنون الَّذين ذُكِروا في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الرُّوم:٤٧].

وهم المذكورون في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ ...﴾ [الحجّ:٤٠-٤١] الآية، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ *﴾[غافر:٥١].

وهم الموعودون بالاستخلاف في الأرض، والتَّمكين لدينهم، وإبدالهم بعد الخوف أمنًا، وبعد الذُّلِّ عزًّا.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا آيةً أخرى تصدِّق ما سبق من أنَّ الصَّبر والتَّقوى هما سبيل النَّصر، فذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: ٥٥]) إلى آخر الآية؛ لأنَّ الإيمان بالله والعمل الصَّالح من جملة ما يندرج في مسمَّى الصَّبر والتَّقوى - كما عرفتَ معنى كلِّ واحدٍ منهما فيما سلف.

ثمَّ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر في هذه الآية أجلَّ مقامات هؤلاء في نصرة الله عَزَّوَجَلَّ، وهو توحيده، فقال: (﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النُّور: ٥٥])، فأعظم ما يُنصَر به دين الله عَزَّوَجَلَّ هو إقامة التَّوحيد، وإعلان إفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حقوقه: من ربوبيَّةٍ، وألوهيَّةٍ، وأسماءٍ وصفاتٍ.

ولا يمكن أن ينال عبدٌ التَّقوى والصَّبر إلَّا إذا امتلأ قلبه بأنوار التَّوحيد، فإنَّ للتَّوحيد نورًا في القلب، كلَّما قوي التَّوحيد قوي هذا النُّور؛ فاهتدى الإنسان إلى

إنزال نفسه في منازل التَّقوى والصَّبر، وإذا ضَعُف ذلك النُّور تلجلج العبد؛ ففوَّت أبوابًا كثيرةً من أبواب التَّقوى والصَّبر.

ولهذا فإنَّ **من أهمِّ المهمَّات**: عناية المؤمن بمعرفة توحيد ربِّ الأرض والسَّماوات؛ لأنَّ مفتاح الولاية، ومنشور السَّعادة في الأولى والأخرى، مُوكَلٌ بتحقيق التَّوحيد، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ۞﴾[الأنعام:٨٢]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الأمن لا يكون إلَّا لمن آمن، ثمَّ لم يلبس إيمانه بظلمٍ، **والظُّلم هنا**: الشِّرك. ثبت تفسيره بذلك عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «الصَّحيحين» [(١)].

فإذا هُدِي العبد إلى التَّوحيد، وسلم من الشِّرك؛ كان الجزاء أن ينال الأمن في الدُّنيا والآخرة، وأن يكون مهتديًا في الدُّنيا والآخرة.

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢)، ومسلمٌ (١٢٤)، من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فعليك - يا عبد الله - أن تعرف هذا المعنى جيِّدًا، وأن تعمل به؛ حتَّى تكون من أنصار الله، وحتَّى تحصل لك العاقبة الحميدة الَّتي وعد الله بها أنصاره.

فالله وعد أنصاره بالنَّصر، والعاقبة الحميدة، والتَّمكين في الأرض، وأن يبدلهم بخوفهم أمنًا، لمَّا أخافوا أعداءه من أجله، وصبروا على دينه، وجاهدوا في الله، وقدَّموا أنفسهم في سبيله سُبْحَانَهُ رخيصةً، يرجون رحمته ويخافون عذابه، قد باعوها لله وسلَّموها لله؛ عملًا بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التَّوبة:١١١].

فهؤلاء هم أنصار الله الَّذين ثبتوا على دينه، واستقاموا عليه قولًا وعملًا، في الأمن والخوف، في الشِّدَّة والرَّخاء، جاهدوا لله وصبروا، فجعل الله لهم العاقبة الحميدة، كما قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾[العنكبوت:٦٩]، وعدهم بالهداية، وأنَّهم هم المحسنون المنصورون.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

لمَّا بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر الصَّبر والتَّقوى في النَّصر، أراد تقرير هذا المعنى تأكيدًا. فأخبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا الأمر إذا وقر في القلب؛ بذل العبد نفسه رخيصةً في سبيل الله، ونال من ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّأييد والنُّصرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾[البقرة:١٩٤]، وقال تَعَالَىٰ: (﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ

ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞﴾ [العنكبوت:٦٩]).

ولمَّا خرج طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۞﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١]، فلمَّا استعانوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعرفوا أنَّهم إذا صبروا واستعانوا به نصرهم عَزَّوَجَلَّ؛ جاء النَّصر من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا وُجِد هذا الأمر في قلب العبد؛ نصره الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا النَّصر لا يقتصر على مجرَّد نصر العبد على أعدائه الَّذين يقاتلونه بالسَّيف؛ بل ينصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نفسه، وينصره على الشَّيطان، وينصره على المنافقين، وينصره على دعاة البدعة والضَّلال، وينصره على الحاسدين؛ لأنَّه يَكِل أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صابرًا متوكِّلًا.

وهذا المعنى في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۞﴾ [السَّجدة:٢٤]، واليقين لا يُنال إلَّا بالتَّقوى، فصارت هذه الآية منبِّهةً إلى افتقار العبد في أمره كلِّه إلى الصَّبر والتَّقوى، وأنَّه لا ينال الولاية والإمامة في الدِّين إلَّا بالأخذ بهذين الأمرين، قال سفيان بن عيينةَ: «لمَّا أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسًا»[1].

---

(١) ذكره ابن كثيرٍ في «تفسيره» ٦/ ١٥٠.

فينبغي أن يعلم الإنسان أنَّ حاجته إلى التَّقوى والصَّبر ليست فقط في قتال أعدائه من الكافرين؛ بل يحتاج إليها في مجاهدة جميع أعدائه، ومن جملتهم: نفسه الَّتي بين جنبيه، فإنَّها أعدى أعدائه[1].

(١) روى هذا المعنى مرفوعًا البيهقيُّ في «الزُّهد الكبير» (٣٤٣) من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال العراقيُّ في «تخريج الإحياء» ص ٨٧٨: «وفيه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن غزوانَ، أحد الوضَّاعين».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمَّا توافرت هذه الأسباب في الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه - رضوان الله عليهم - في يوم بدرٍ؛ نُصِروا على الكفَّار وهم أضعافهم! أضعافهم في القوَّة والعدد، ومع ذلك نُصِروا عليهم لأنَّهم حقَّقوا هذه الصِّفات، نصروا دين الله بالقول والعمل، وصبروا في لقاء الأعداء وصدقوا؛ فمكَّنهم الله، وهزم عدوَّهم، وجعل لهم العاقبة الحميدة.

وهكذا في يوم الأحزاب، صدَقوا، وصبروا، وصابَروا صبرًا عظيمًا، مع كون الكفَّار أضعاف المسلمين، فصبر المسلمون وهم محاصَرون، حتَّى نصرهم الله بأمرٍ من عنده على عدوِّهم بجنودٍ لم يروها، حتَّى زلزلهم وردَّهم خائبين لم ينالوا خيرًا؛ بسبب صبر الصَّحابة ونبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طاعته وجهاد أعدائه.

وهكذا في يوم الفتح، نصر الله المسلمين على عدوِّهم وفتحوا مكَّةَ.

وهزموا الشِّرك وأعوانه وجيش هوازنَ، فضلًا منه سُبْحَانَهُ وتأييدًا لأوليائه.

وهكذا حصل للصَّحابة في قتالهم للرُّوم وفارسَ وغيرهما، صبروا وجاهدوا، فأفلحوا ونُصِروا وجعل الله لهم العاقبة الحميدة؛ فصاروا قادة النَّاس وملوك الأرض.

وسنَّة الله سُبْحَانَهُ هذه سائرةٌ في عباده إلى يوم القيامة؛ من نصره نصره، ومن حاد عن دينه خذله.

ولمَّا جرى ما جرى يوم أحدٍ من الخلل، أُصِيب المسلمون وهم أفضل خلق الله

في أرض الله، فيهم نبيُّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق، وهم بعده وبعد الأنبياء أفضل الخلق، وفيهم الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الأمَّة بعد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيهم عمرُ أفضل الأمَّة بعد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد الصِّدِّيق، وفيهم بقيَّة الأخيار، أُصِيب المسلمون بسبب الخلل الَّذي حصل من الرُّماة لمَّا أخلُّوا بما أوجب الله عليهم من الصَّبر لأعداء الله ولزوم الثَّغر الَّذي يُخشَى منه، فدخل العدوُّ عليهم، وكان الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد أمر الرُّماة أن يلزموا موقعهم وألَّا يبرحوه وإن رأوا العدوَّ يتخطَّف المسلمين، وإن رأوا المسلمين نُصِروا، لا هذا ولا هذا، فعليهم أن يلزموا مكانهم. فلمَّا انهزم العدوُّ يوم أحدٍ ورآهم الرُّماة انهزموا، ظنُّوا أنَّها الفاصلة، فأخلُّوا بمواقعهم، وحاول أميرهم أن يثنيهم عن ذلك فخالفوه - ظنًّا منهم أنَّ الكفَّار لا عودةَ لهم، وأنَّهم قد انهزموا انهزامًا كاملًا -، فدخل العدوُّ على المسلمين، وصارت النَّكبة على المسلمين والقتل والجراحات والهزيمة، حتَّى حاولوا قتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنجاه الله من شرِّهم، وأصابه جراحاتٌ، وكسروا رَبَاعيَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إلى غير هذا ممَّا أصابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقُتِل سبعون من الصَّحابة، وأصاب بعض من بقي جراحاتٌ، وأنزل الله فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي يقتلونهم بإذن الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ يعني بذلك الرُّماة ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: تنازَعوا في الأمر واختلفوا ﴿وَعَصَيْتُم﴾ بترك الموقع الَّذي أمركم الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلزومه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من هزيمة العدوِّ، والجواب محذوفٌ، تقديره: سلَّط العدوَّ عليكم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾

[آل عمران:١٥٢] الآية.

المقصود أنَّهم أُصِيبوا بسبب الخلل الَّذي وقع منهم في موقفٍ عظيمٍ لا بدَّ منه في سياسة الجهاد، من حفظ الثُّغور، وحفظ المنافذ الَّتي يَنفُذ منها العدوُّ. فحفظ الثُّغور الَّتي يدخل منها العدوُّ على المسلمين، وحفظ المنافذ الَّتي يدخل منها العدوُّ على الجيش وقت اللِّقاء، لا بدَّ فيه للجيش بأن يكون عنده عنايةٌ بذلك، وعنده حذرٌ، وعنده حرصٌ على سدِّ كلِّ ثغرٍ يمكن أن ينفذ منها العدوُّ على المسلمين ليضرَّهم أو يأتيهم من خلفهم.

ولمَّا استنكر المسلمون هذا الأمر، وهذا الحدث المؤلم من الجراح والقتل، قالوا: لماذا أصابنا؟ ولماذا جرى هذا؟ وفيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وفيهم خيرة الله من عباده بعد الأنبياء، أنزل الله تَعَالَى: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا**﴾ يعني يوم بدرٍ، قتلوا سبعين من الكفَّار، وأسروا سبعين، وحصلت جراحاتٌ في الكفَّار كثيرةٌ ﴿**قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا**﴾ يعني استنكرتم: من أين أصابنا؟! قال تَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران:١٦٥]، وهذا يفيد أنَّ معصية بعض الجيش وإخلالَ بعض الجيش بالأسباب معصيةٌ للجميع، فأُصِيبوا بسبب بعضهم.

وهكذا النَّاس إذا رأوا المنكرات وشاعت، ولم تُغيَّر؛ عمَّت العقوبات، قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**». أخرجه الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ بإسنادٍ صحيحٍ عن الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ عماد النُّصرة على الأعداء هو إقامة الدِّين بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والصَّبر عليه، ضرب بذلك مثالًا في حال أصحاب النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّهم لمَّا أقاموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وآمنوا بالله واليوم الآخر، وعبدوا الله لا يشركون به شيئًا، وصبروا على اللَّأواء والضَّنك والعنت والمشقَّة في جهاد الكافرين = أيَّدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بروحٍ منه، فغلبوا المشركين يوم بدرٍ، وكان أصحاب النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قليلًا، ففي «صحيح البخاريِّ» عن البراء بن عازبٍ أنَّه قال: «كنَّا أصحابَ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نتحدَّث أنَّ عدَّة أصحاب بدرٍ على عدَّة أصحاب طالوتَ الَّذين جاوزوا معه النَّهر، ولم يجاوز معه إلَّا مؤمنٌ، بضعة عشر وثلاثمائةٍ»[1]، فكان عدد هؤلاء قليلًا كعدد هؤلاء، ولكنَّهم جميعًا كان الله عَزَّوَجَلَّ معهم؛ لأنَّ لسان حالهم وقالهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾ [البقرة:١٤٩]. فلمَّا استعانوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حرب المشركين؛ أيَّدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمدَّهم بنصره؛ فغلبوا المشركين، وهزموهم شرَّ هزيمةٍ، مع أنَّ قريشًا خرجت بأحلاسها ومواليها وبَطَرها وزخرفها، وأقامت على بدرٍ، تريد أن تذبح الإبل وتغنِّي القِيَان ويُسقَى الخمر مُستَعْدِين على أولياء الله المؤمنين؛ فقُتِل صناديد قريشٍ، وأرغم الله أنوف الكافرين، وأُسِر منهم سبعون، وقُتِل منهم سبعون.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٩٥٨).

ثمَّ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبيِّن لعباده المؤمنين مثالًا من صفوة النَّاس - وهم أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُفقَه من بعدهم، وهو أنَّهم إذا أخلُّوا بهذا الأصل - وهو التَّقوى والصَّبر - سلَّط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم أعداءهم، فوقع ما وقع منهم من الخلل في ترك أمر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم الصَّبر عليه لمَّا نزل الرُّماة من الجبل، وساروا خلف الغنيمة يطلبون ما تركه الكفَّار وراءهم، فالتفَّ عليهم المشركون ووقعت البليَّة على المؤمنين، فقُتِل منهم حينئذٍ سبعون من أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هذه المصيبة وقعت لمخالفتهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥].

وإذا كان هذا يقع لترك أمر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في لزوم ثغرٍ من الثُّغور، فما الحريُّ بأن يقع بأمَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تركت شعائره، وهجرت دينه، وغيَّرت شريعته، ووالت أعداءه؟! فهل تُنصَر وهي على هذه الحال؟! لا، فلا تُنصَر إلَّا إذا رجعت إلى الدِّين الَّذي كان عليه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذت بالدِّين كلِّه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[البقرة:٢٠٨].

فإذا نجح المسلمون في معالجة الخلل الواقع في أديانهم؛ انتصروا على على أعدائهم. أمَّا وأعلام الوثنيَّة، وقباب الشِّرك، ومظاهر البدعة، ونتن الجهل يفشو في أضراب البلاد الإسلاميَّة = فإنَّها لا تُنصَر، هذا وعد الله الَّذي لا يتخلَّف.

فالله عَزَّوَجَلَّ لا ينصرهم لمجرَّد انتسابهم إلى الإسلام؛ بل ينصرهم إذا صدقوا في الانتساب إليه، فكم من منتسبٍ إلى الإسلام لا ينفعه انتسابه، وإنَّما تصحُّ دعوى النِّسبة مع إقامة البيِّنات عليها.

فإذا قام المسلمون بجمع آلة النَّصر، من إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والإيمان بالله واليوم الآخر، وتوحيد الله، وترك الشِّرك = عند ذلك ينصرهم الله عَزَّوَجَلَّ على أعدى الأعداء، كما نصر محمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه على الأمم الكافرة، فغلب النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صناديد العرب من أهل مكَّةَ ونجدٍ وتسلَّط عليهم، وأخاف صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الرُّوم، وخرج إليهم إلى تبوك، ثمَّ تَدكدكت حصون إمبراطوريَّة الرُّوم وفارسَ - الإمبراطوريَّتين العظيمتين حينئذٍ - على أيدي المؤمنين، ولم يكن لهم من آلة القتال وعُدَّة الحرب ما لأضرابهم من أعدائهم.

بل لمَّا دخل رِبعيُّ بن عامرٍ إلى رُستم فرآه على حالٍ رثَّةٍ، من ثوبٍ ممزَّقٍ، وسيفٍ مثلَّمٍ، ورمحٍ مكسَّرٍ، وفرسٍ قصيرةٍ، قال له رستم وهو متَّكئٌ: أجئتم بأفراسكم الهزيلة، وثيابكم البالية، ورماحكم المثلَّمة، لتخرجونا من بلادنا؟! فقال المؤمن القويُّ بإيمانه، الَّذي لا ينظر إلى كثرة السِّلاح، ولا جمع الأعداد: «نعم؛ جئنا لنخرج النَّاس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعة الدُّنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» [1].

فكان الأمر الَّذي اتَّكأ عليه رِبعيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو إقامة الدِّين، فجاؤوا بتوحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فهزموا الرُّوم والفرس شرَّ هزيمةٍ.

وهذا ما يكون لأتباع النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا صدقوا، فليست العبرة بكثرة

(١) انظر: «تاريخ الطَّبريِّ» ٣/ ٥١٨-٥٢٠.

الآلات، ولا جمع القوَّات، ولا حشد الرَّايات، وإنَّما العبرة بصدق ما في القلوب.

ولا أدلَّ على ذلك ممَّا اتَّفق له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيرته، ولا ما اتَّفق أيضًا لعباد الله المؤمنين، كما قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا في جالوتَ الَّذي كان ذا قوَّةٍ عظيمةٍ، حتَّى قال المؤمنون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[البقرة:٢٤٩]، فقال عباد الله الصَّادقون: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝﴾[البقرة:٢٤٩]، ودعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يثبِّتهم، واستعانوا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥١].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود أنَّ الواجب على الأمَّة التَّآمر بالمعروف، والتَّناهي عن المنكر، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، والصِّدق في ذلك، في كلِّ بلدٍ، وفي كلِّ قريةٍ، وفي كلِّ قبيلةٍ، عليهم أن يتناصحوا، ويتواصوا بالحقِّ والصَّبر عليه، ويتعاونوا على البرِّ والتَّقوى، ويأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر؛ حتَّى لا تصيبهم كارثةٌ بسبب ذنوبهم وأعمالهم.

يقول سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞﴾ أي جنس الإنسان، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۞﴾[العصر:١-٣]، هؤلاء هم الرَّابحون، وهم المنصورون.

فلا بدَّ من هذه الصِّفات الأربع: الإيمان الصَّادق، والعمل الصَّالح، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر، في الجهاد وغيره، وفي المدن والقرى وفي القبائل، لا بدَّ من هذه الخصال الأربع.

فمن أراد نصر الله، والسَّلامة لدينه، وأراد حسن العاقبة؛ فليتَّق الله، وليصبر على طاعة الله، وليحذر محارم الله أينما كان، هذا هو سبب نصر الله له، وهو من أسباب نجاته في الدُّنيا والآخرة.

فالرَّجل في بيته، وفي المسجد، وفي الطَّريق، وفي السَّيَّارة، والطَّائرة، والقطار، وفي محلِّ البيع والشِّراء، وفي الجهاد، وفي كلِّ مكانٍ، يجب عليه أن يتَّقي الله، وأن ينصر دين الله بقوله وعمله، وفي جهاده، وفي جميع شؤونه.

وهكذا المرأة في بيتها، وفي كلِّ مكانٍ، عليها أن تتَّقي الله، وأن تنصر دين الله بقولها وعملها حسب الطَّاقة، لقوله تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التَّغابن:١٦]، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، وقول النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**». متَّفقٌ على صحَّته.

فالمرأة تبذل النَّصيحة مع الزَّوج، ومع الأولاد، ومع من في البيت من أقارب، وخدمٍ، ومع الجيران، ومع الزَّميلات، ومع الجليسات؛ ترجو بذلك ما عند الله من المثوبة، وأن ينفع بها عباده.

وكلُّ واحدٍ من الرِّجال عليه أن يتَّقي الله، وينصر دينه في قوله وعمله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، عن صدقٍ، وإخلاصٍ، ورغبةٍ، ورهبةٍ، كما قال سُبْحَانَهُ في سورة الأنبياء عن عباده الصَّالحين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فيما سبق - ما ألَمَّ بالمسلمين بسبب معصيتهم

لنبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحدٍ، وأرشد إلى وجوب التَّحذير من ذلك - فإنَّه إذا فشت المنكرات وشاعت ولم تُغيَّر؛ عمَّت العقوبات، ووقع البلاء على النَّاس، وتسلَّط عليهم أعداؤهم -؛ شرع يبيِّن المَخرج من ذلك، فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ (أنَّ الواجب على الأمَّة التَّآمر بالمعروف، والتَّناهي عن المنكر، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، والصِّدق في ذلك) كلِّه.

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ دليلًا على ذلك سورةَ العصر، فإنَّ هذه السُّورة العظيمة قد جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها أسباب السَّعادة، وهي سعادةٌ في الدُّنيا والآخرة، وفلاحٌ في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞﴾[العصر:٢])، فحكم على جميع جنس الإنسان بأنَّه في خسارٍ وتَبَارٍ، ولا يخرج من هذا الجنس على وجه الاستثناء إلَّا الموصوفون بالصِّفات الأربع المذكورة في الآية الَّتي تليها، وهي (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۞﴾[العصر:٣])، (فلا بدَّ من هذه الصِّفات الأربع: الإيمان الصَّادق، والعمل الصَّالح، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر، في الجهاد وغيره، وفي المدن والقرى وفي القبائل، لا بدَّ من هذه الخصال الأربع).

فإذا قام المسلمون بهذه الصِّفات الأربع في أنفسهم، وأقاموها في غيرهم، فكمَّلوا أنفسهم بالإيمان والعمل، وسعوا في تكميل غيرهم بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والصَّبر على ذلك؛ عند ذلك فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوجب لهم النَّجاةَ في الدُّنيا والأخرى، والسَّعادة في الأولى والأخرى، والفلاح في الأولى والأخرى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فهذه أسباب النَّصر، هذه أسباب حماية الله لعباده من كلِّ سوءٍ، وأسباب نصره لهم، وهي من أعظم الأسباب في دخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار.

ولا بدَّ مع هذا كلِّه من الحرص على الأسباب الدِّينيَّة والحسِّيَّة الَّتي يُعلَم أنَّها من أسباب النَّصر، لقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ﴾ [النِّساء:١٠٢]، ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] الآية، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء:٧١].

وهذا هو الواجب على المؤمنين، أن يأخذوا حِذرهم من عدوِّهم عند القتال، وأن يعدُّوا له ما استطاعوا من قوَّةٍ، من السِّلاح، والعدد، والحرس الجيِّد، وتكون الملاحظات جيِّدةً، والثَّغرات مسدودةً، والسِّلاح محمولٌ عند الحاجة حتَّى ولو كانوا في الصَّلاة، فلا يجوز أن يقول المجاهد: أنا مؤمنٌ ويكفي؛ بل لا بدَّ من هذه الأسباب الحسِّيَّة والمعنويَّة.

فالرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل المؤمنين، وأكمل المتوكِّلين، والصَّحابة أفضل المؤمنين بعد الأنبياء، ومع هذا كلِّه أصابهم ما أصابهم يوم أحدٍ لمَّا أخلَّ

الرُّماة بالشَّيء الَّذي يجب عليهم، وأخلُّوا بالموقف الَّذي أُمِروا بلزومه.

فالمعاصي من أسباب الخذلان، كما أنَّ معصية الرُّماة سبب الهزيمة يوم أحدٍ، وهكذا المعاصي كلُّها في كلِّ وقتٍ من أسباب الخذلان.

وإن ظهرت ولم تُنكَر تكون من أسباب الخذلان، وتسليط الأعداء، وحصول الكثير من المصائب، كما أنَّها من أسباب قسوة القلب وانتكاسه - نعوذ بالله من ذلك، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۞﴾[الشُّورى:٣٠]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۞﴾[الحديد:١٦].

فالمعصية إذا ظهرت ضرَّت العامَّةَ إذا لم تُنكَر ولم تُغيَّر.

فالمؤمنون مأمورون بالاستقامة على تقوى الله، والجهاد لأعدائه، وأن يصبروا على التَّقوى والعمل الصَّالح أينما كانوا، مع الإيمان بأنَّ الله سُبْحَانَهُ سوف ينصرهم، ويمكِّنهم من عدوِّهم، ويجعلهم من بعد خوفهم في أمنٍ وعافيةٍ، وبعد القلق في استقرارٍ وراحةٍ؛ بسبب إيثارهم حقَّه، ونصرهم دينَه، وتعاونهم على البرِّ والتَّقوى، وصدقهم في ذلك، ونصحهم لله ولعباده.

ومتَّى أخلُّوا بشيءٍ فليعلموا أنَّه خطرٌ عليهم، وأنَّه متَّى أصابهم مصيبةٌ بسبب الخلل فمن عند أنفسهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۞﴾[الشُّورى:٣٠]، ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[النِّساء:٧٩].

وهو القائل سُبْحَانَهُ في سورة آل عمران بعد ما ذكر كيد الكفَّار: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۞ ﴾[آل عمران:١٢٠].

وهو القائل سُبْحَانَهُ في سورة النُّور: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[النُّور:٥٥] الآية.

وفي سورة محمَّدٍ يقول سُبْحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ ﴾[محمَّد:٧].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة طرفًا يسيرًا من أسباب النَّصر الحسِّيَّة؛ تنبيهًا إلى أنَّ العروة الوثقى في أسباب النَّصر هي الأسباب الدِّينيَّة المعنويَّة، فذكر جملةً من الآي الدَّالَّة على أخذ الحذر من الكفَّار عند القتال، ووجوب إعداد ما يستطيعه المؤمنون من قوَّةٍ ومن رِباط الخيل، يرهبون به عدوَّ الله عَزَّوَجَلَّ وعدوَّهم.

فلا يكتفي العبد بأنَّه قد حصَّل الأسباب الدِّينيَّة وصار من أهل الإيمان، والعمل الصَّالح، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر؛ بل لا بدَّ من أن يعضد هذه الأحوال الَّتي قامت به بالأسباب الحسِّيَّة، فالمؤمن مأمورٌ بهذا

وهذا - كما تقدَّم ذكره [١].

ثمَّ حذَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المعاصي، وذكر أنَّها من أعظم أسباب الخذلان، كما اتَّفق لأصحاب النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معصية الرُّماة، فكانت سببًا للهزيمة يوم أحدٍ، فالمعاصي تكون سببًا للهزائم والخذلان، وتسلُّط الأعداء في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

فإذا لم يستقم المؤمنون على تقوى الله، وجهاد أعدائهم، ويصبروا على التَّقوى والعمل الصَّالح، وإلَّا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ينصرهم.

ثمَّ أبدى وأعاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما سبق تقريره من أنَّ عِماد النَّصر هو تقوى الله، والصَّبر على إقامة شريعته.

(١) تقدَّم ص ١٦، ١٧.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وأعظم العدوِّ: الشَّيطان، فهو أعظم العدوِّ للإنسان، فإنَّه يجري منه مجرى الدَّم، فعليك أن تجاهده بتقوى الله، وترك معصيته، وأن تحذر مكائده ووساوسه، وأن تكثر من الاستعاذة بالله منه، مع الإكثار من الحسنات، والحذر من السَّيِّئات في جميع الأوقات، فهذا هو طريق السَّلامة من شرِّه ومكائده بتوفيق الله وإعانته.

ولا بدَّ مع ذلك من جهاد النَّفس، والإكثار من ذكر الله، والاستقامة على دينه، والحفاظ على حدوده، والحذر من مكايد عدوِّ الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

يقول الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ۝﴾ [الطَّلاق:٢، ٣]، ويقول تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝﴾[الطَّلاق:٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [فاطر:٦]، ويقول سُبْحَانَهُ عن زوجة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾[يوسف:٥٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ في سورة النَّازعات: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝﴾[النَّازعات:٤٠، ٤١].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ختم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرِّسالة بذكر أعظم عدوٍّ للإنسان، وهو الشَّيطان، فإنَّ الشَّيطان قعد للإنسان بأطرُق الخير؛ فقَعد له بطريق التَّوبة، والهجرة، وكلِّ سبيلٍ

يقرِّبه إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (١).

ولا خلاص للعبد من شـرِّه إلَّا بجهاده، والحذر منه، واتِّخاذه عدوًّا، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[فاطر:٦].

وحذَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الرُّكون إليه والوثوق بأمانيِّه واتِّباع خطواته، وأنَّها تؤدِّي بصاحبها إلى الهلاك، وحذَّر من مكائده ووساوسه وشِراك كيده.

ويلجأ الإنسان في ذلك إلى الإكثار من الاستعاذة بالله، وملازمة الحسنات، ومباعدة السَّيِّئات؛ لأنَّ الحسنة تضعفه، كما أنَّ السَّيِّئة تقوِّيه.

ومهما بلغ شرُّ الشَّيطان فإنَّه بِحَمْدِ ٱللَّهِ ضعيفٌ في مجاهدة المؤمنين، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[النِّساء:٧٦]، ولا يضعف كيد الشَّيطان إلَّا بالإيمان؛ لأنَّ المؤمنين يكونون في حصنٍ حصَّنهم الله عَزَّوَجَلَّ فيه، وهو قوله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحِجر:٤٢]، فكلَّما زاد إيمان العبد صار في حصنٍ وأمنٍ من الشَّيطان، وكلَّما ضعف إيمانه وجد عليه الشَّيطان سبيلًا.

---

(١) أخرج النَّسائيُّ (٣١٣٤) من حديث سَبْرَةَ بن أبي فاكهٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ، فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ المَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ». فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ».

وذكر المصنِّف في تضاعيف كلامه من أعداء الإنسان: النَّفسَ الأمَّارة بالسُّوء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف:٥٣]، فإنَّ الإنسان قد رُكِّب فيه الظُّلم والجهل، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢]، وإذا كانت النَّفس مطبوعةً على الظُّلم والجهل، فإنَّ صاحبها لا يبوء بشيءٍ منها إلَّا بأمرها له بالسُّوء، ما لم يَقُدها بزمام الشَّريعة ويُلزِمها بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّه إذا فعل ذلك بطلب العلم، والعدل مع النَّاس؛ تنقلب حينئذٍ نفسه إلى نفسٍ مطمئنَّةٍ، ويفوز مع الفائزين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۞﴾[الفجر:٢٧-٣٠].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فهذه أسباب النَّصر، وهذه أسباب النَّجاة من الأعداء، وهذه أسباب السَّلامة من مكائد الأعداء، جنِّهم وإنسهم، حضرهم وبدوهم، قريبهم وبعيدهم، وهي أسباب النَّصر عليهم، والسَّلامة من مكائدهم، وهي أن تتَّقي الله في جميع الأحوال، وأن تحافظ على دينه، وأن تحذر معصيته أينما كنت، في الجهاد وغيره.

هذه أسباب حفظ الله لك، وحفظ الله لدينه بك، ونصر الله لك على عدوِّك وخذلان عدوِّك، ومتى فرَّط المؤمنون في هذه الأمور فهم في الحقيقة ساعون في تأييد عدوِّهم في نصره عليهم، والمعنى أنَّ معاصي الجيش عونٌ لعدوِّهم عليهم، كما جرى يوم أحدٍ.

فعلى المؤمنين جميعًا في أيِّ مكانٍ أن يتَّقوا الله، وأن ينصروا دينه، وأن يحافظوا على شرعه، وأن يحذروا من كلِّ ما يغضبه، في أنفسهم، وفيمن تحت أيديهم، وفي مجتمعهم، كلٌّ على حسب طاقته، كما قال الله سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن:١٦].

فنسأل اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يوفِّقنا وإيَّاكم وجميع المسلمين لما فيه رضاه، وأن يُصلِح قلوبنا وأعمالنا جميعًا، ويجعلنا من الهداة المهتدين، وأن يعيننا على حفظ أنفسنا من شرِّ جميع أعدائنا، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يوفِّق ولاة أمر المسلمين جميعًا لما يرضيه، ولما يمكِّنهم من عدوِّهم ويعينهم عليه، وأن ينصر بهم الحقَّ ويخذل بهم الباطل، وأن يجمع كلمتهم على التَّقوى، وأن يصلح جميع الشُّعوب الإسلاميَّة وقادتهم، كما أسأله سُبْحَانَهُ أن يوفِّق ولاة أمرنا في هذه البلاد

لكلِّ خيرٍ، وأن يعينهم على كلِّ ما فيه رضـــاه، وأن ينصـــر بهم الحقَّ ويخذل بهم الباطل، وأن يجعلهم من الهداة المهتدين، إنَّه جَلَّوَعَلَا جوادٌ كريمٌ.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدِّين.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ختم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإعادة التَّعريف بأسباب النَّصر بقولٍ جامعٍ، فقال: (وهي أن تتَّقي الله في جميع الأحوال، وأن تحافظ على دينه، وأن تحذر معصيته أينما كنت، في الجهاد وغيره)، ثمَّ قال: (هذه أسباب حفظ الله لك، وحفظ الله لدينه بك، ونصر الله لك على عدوِّك وخذلان عدوِّك)، فإذا جمع العبد هذه الآلةَ نصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أعدائه.

والواجب على العبد أن يسعى في طلب هذه الأسباب، وأن يبذلها في كلِّ مكانٍ، وأن يدعو النَّاس إليها على حسب وسعه وطاقته، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن:١٦])، وقال تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطَّلاق:٧].

فإذا قام المســـلمون بهذا مكَّن الله عَزَّوَجَلَّ لهم، ونصـــرهم على عدوِّهم، وكَبَت أعداء الملَّة والدِّين، وفتح عليهم أبواب الخير في دينهم ودنياهم.

وفَّق الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين جميعًا إلى ما يحبُّه ويرضاه، ونصرهم على عدوِّهم،

وأعزَّ جنده، وأعلى كلمته.

وهذا آخر التَّقرير على هذه الرِّسالة.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله محمَّد وآله وصحبه أجمعين [١].

(١) تمَّ التَّعليق على الكتاب في مجلس واحدٍ، بعد المغرب ليلة الأربعاء التَّاسع عشر من جمادى الأولى، سنة سبعٍ وعشرين بعد الأربعمائة والألف، في جامع الإيمان بحيِّ النَّسيم بمدينة الرِّياض، ومدَّته: ساعةٌ وإحدى عشرة دقيقةً.

ثَبَت المصادر والمراجع

١ - البيان والتَّبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الشَّهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٤٢٣.

٢ - تاريخ الطَّبريِّ (تاريخ الرُّسل والملوك)، أبو جعفرٍ محمَّد بن جرير الطَّبريُّ، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيمَ، دار المعارف - مصر، ط٢، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

٣ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثيرٍ، تحقيق: حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزيِّ للنَّشر والتَّوزيع - السُّعوديَّة، ط ١، ١٤٣١.

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيمٍ أحمدُ بن عبد الله الأصبهانيُّ، مطبعة السَّعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

٥ - الزُّهد الكبير، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكرٍ البيهقيُّ، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثَّقافيَّة - بيروت، ط ٣، ١٩٩٦م.

٦ - السُّنَّة، أبو بكر أحمدُ بن محمَّد بن هارونَ بن يزيد الخلَّال البغداديُّ الحنبليُّ، تحقيق: د عطيَّةَ الزَّهرانيُّ، دار الرَّاية - الرِّياض، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٧ - سنن التِّرمذيِّ (الجامع الكبير)، أبو عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيُّ، تحقيق: بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.

٨ - سنن النَّسائيِّ، أبو عبد الرَّحمن أحمد بن شعيب النَّسائيُّ، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي وإخوانه، دار الرِّسالة العالميَّة، ط ١، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م.

٩ - صحيح البخاريِّ، أبو عبد الله، محمَّد بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفيُّ، تحقيق: جماعة من العلماء، الطَّبعة السُّلطانيَّة، بالمطبعة الكبرى الأميريَّة، ببولاق مصرَ، ١٣١١ هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، ثمَّ صوَّرها بعنايته: د. محمد زهير

الناصر، ط١، ١٤٢٢ هـ، دار طوق النجاة – بيروت.

١٠ – صحيح مسلمٍ، أبو الحسين مسلم بن الحجَّاج بن مسلم القشيري النَّيسابوري، تحقيق: محمد ذهني أفندي وإخوانه، دار الطِّباعة العامرة – تركيا، ١٣٣٤ هـ، ثمَّ صوَّرها بعنايته: د. محمد زهير النَّاصر، ط١، ١٤٣٣ هـ، دار طوق النَّجاة – بيروت.

١١ – عيون الأخبار، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبةَ الدِّينوريُّ، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٨.

١٢ – المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوعٌ بهامش إحياء علوم الدِّين)، أبو الفضل زين الدِّين عبد الرَّحيم بن الحسين بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن إبراهيمَ العراقيُّ، دار ابن حزمٍ – بيروت، ط ١، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

كشَّاف الموضوعات العامُّ

الموضوع	الصَّفحة
مقدِّمة الدَّرس	٥
التَّعريف بالمصنِّف	٦
التَّعريف بالمصنَّف	٧
مقدِّمة الكتاب	٩
أسباب نصر الله للمؤمنين	١٤
أنواع أسباب النَّصر	١٦
معنى نصرة العبد ربَّه	١٨
قطبان عليهما مدار نصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ	١٨
آيات النُّصرة	٢١
تتمَّة آيات النُّصرة	٢٦
أثر التَّقوى والصَّبر في تحقيق النَّصر	٢٩
مثالٌ على أنَّ التَّقوى والصَّبر هما عماد النَّصر	٣٢
المخرج من الهزيمة والذِّلَّة	٣٩
طرفٌ من أسباب النَّصر الحسِّيَّة	٤٢
أعظم عدوٍّ للإنسان	٤٦
خاتمةٌ	٤٩
ثَبَت المصادر والمراجع	٥٣

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد